المؤسسة العربية للدراسات الإستراتيجية
ARAP STRATEJİK ARAŞTIRMA MERKEZI

الحُديدة ..
دواعي التحرير و مخاوف التداعيات

المؤسسة العربية للدراسات الاستراتيجية

8 أبريل2017
إسطنبول - تركيا

وديع عطـا

توطئة :

الحديدة .. قلب تهامة النابض ، ومركزها الإداري ، ثاني أكثر المحافظات سكاناً ، وهي عاصمة ثاني أكثر الأقاليم من حيث السكان ، وأغناها بالموارد الطبيعية . بوابة اليمن الغربية ، وسلة غذائها الأكثر إنتاجاً . تشير المعلومات غير الرسمية أن تعداد سكان الحديدة بات يُضاهي 3.600.000 نسمة وهي وفقاً لآخر تعداد رسمي للسكان عام 2004م الثانية بعد تعز تليها إب.
تهامة بطبيعتها ليست بيئة طاردة ، وثمة مثل تهامي يقول "جاور بحر ولا تجاور مَلِك" أي أن مجاورة البحر كمورد طبيعي أضمن للرزق من الارتباط بالعمل مع ملك قد يموت وتتبدل الظروف بموته، لذا فإن النزوح والهجرة ليست خياراً وارداً إلا فيما ندر ، أو لأسباب وظروف تستدعي الانتقال.

وإن حدث فلا ينتقل منها إلا من ارتبطت مصلحته المعيشية أو اقتضت الظروف انتقاله كسكان جزيرة كمران التي تشهد هجرةً ملحوظةً بسبب انعدام مياه الشرب حيث تراجع سكانها من 11.000 نسمة إلى أقل من 6.000 والعدد في تناقص، ولو وجد أهالي الجزيرة من ينقذهم بمشروع مياهٍ لتوقف النزيف السكاني منها. في إطار الأسر التهامية مثلاً فآل الأهدل -إحدى أكثر الأسر اليمنية والتهامية انتشاراً- قد تفرقت بهم السبل بين تعز وعدن وحضرموت متنقلين لدواعٍ علمية على الأرجح وليست معيشية.

يعزز ارتباط التهاميين بموطنهم توفر أسباب المعيشة التي يمثل البحر والزراعة أهم مصادرها ، إذ يعتمد أكثر من 60% من التهاميين على مهنتي الصيد والزراعة بشكلٍ أساسي، ولا تكاد لأبناء تهامة أي تواجد خارج نطاقهم الجغرافي إلا في ريف أبين وسهول تُبَن -في النصف الأول من القرن الماضي- الذي استوعبهم كمزارعين وجدوا فرصاً سهلة في بيئة لا تختلف كثيراً لا بالبر ولا بالبحراً عن بيئتهم التهامية.

حديثاً ومع تقلّص بل وانعدام الدعم الحكومي للزراعة والإهمال الرسمي لهموم الصيادين سيما التموينية والأمنية ، اضطر البعض للبحث عن فرص للعيش خارج المحافظة كمارب وغيرها أو حتى في ريف الجنوب السعودي يمارسون فيه حرفهم التقليدية المتمثلة في الرعي والزراعة، أو ما يتقنوه من مهن ووظائف تأهلوا لها واقتضت اغترابهم.

وعليه فإن تهامة ليست بأي حالٍ بيئة طاردة لأبنائها طالما توفرت فيها أسباب الحياة التي يعتبر الأمن مِن أهمها فالبحر كفيلٌ بتأمين عشرات الألوف من فرص المعيشة.

لمحة عن الحديدة .. المحافظة

تتكون محافظة الحديدة من 26 مديرية أكبرها مساحة وسكاناً بيت الفقيه باجل وأصغرها كمران والصليف ، وتتبعها عشرات الجزر ليست مأهولة منها إلا كمران وأرخبيل حنيش وزقر التي تعتبر مواقع عسكرية تتبع الدفاع الساحلي.
تمتد الحديدة على الساحل الغربي بطول 300 كلم يبدأ من اللحية شمالاً وينتهي إلى شواطئ الخوخة جنوباً .

انتخابياً تتكون من 34 دائرة انتخابية.

من بين مديرياتها الست والعشرين تقع 11 مديرية على الساحل الغربي،
وهي (اللحية - كمران - الصليف - باجل - الميناء - الحالي - الدُريهمي - بيت الفقيه - زبيد - التحيتا - الخوخة)
بتعدادٍ يتراوح بين 800 ألف إلى مليون نسمة يمتهن أغلبهم حرفة الصيد ويعتمدون على البحر مصدراً رئيساً للعيش ، إضافة إلى الآلاف من سكان المديريات الريفية الذين اتخذوا من البحر وجهة للعمل بعد أن ندرت فرص العمل في البر، بين هؤلاء الصيادين من يحملون مؤهلات دراسية ثانوية وجامعية.

في الجانب الآخر كانت مزارع الموز والباباي والحنا وبعض الخضروات تستوعب الآلاف من العاملين ، لكنها شهدت نضوباً اضطرادياً بل ومتسارعاً بسبب الظروف الاقتصادية المتدهورة والتي ازدادت سوءاً في ظل الوضع الأمني الراهن .

رغم مواردها .. لماذا تجوع تهامة ؟

تساؤل منطقي ومشروع قد يخطر على الكثير ممن تابعوا التدهور الإنساني الذي غطّته وسائل الإعلام وبات محل اهتمام الرأي العام المحلي بل و الخارجي ، حتى أن بعض الصحف العالمية في ألمانيا وأميركا تداولت صور بعض ضحايا سوء التغذية الحاد الذي اجتاح القسم الجنوبي من ساحل تهامة.

تعددت زوايا التغطية والتناول لمظاهر ما يمكن اعتباره "مجاعة طارئة" في تهامة ، فثمة من يلقي باللوم على التحالف المتهم بحصار البحر على وقع التضليل الإعلامي الممنهج ، ومن يُحمّل المليشيا الانقلابية مسؤولية ما لحق بالسكان المغلوبين على أمرهم .

الحقيقة أن كثير من مناطق الريف في السهل والساحل التهامي تعاني بشكل من مزمن من مظاهر سوء التغذية لكنه لم يرقَ ليصبح حاداً لدرجة تحويل ضحاياها إلى هياكل عظمية، فآخر ما يتذكره الأهالي من مجاعة كانت في مطلع السبعينات إبان حكم الرئيس المرحوم القاضي عبدالرحمن الإرياني.

حسب مصادر طبية فإن ما بين اثنين إلى ثلاثة أطفال من كل 10 يلقون حتفهم بسبب مضاعفات سوء التغذية الوخيم ، يضاعف من ذلك تفشيه بين فئات الأطفال وكبار السن ، وهو نتاجٌ طبيعي لموجة الجوع القسري ومحدودية المساعدات الإغاثية والطبية المقدمة من المنظمات الطبية والإغاثية سواء رسمية أو أهلية.
وتحول الأمر من إصابة الأطفال إلى الأكبر سناً ممن تأثرت حياتهم بانعدام مصادر الدخل التي كانت توفر لهم الحدّ الأدنى من الاستقرار المعيشي، مع أن جزء لا بأس به من ضحايا سوء التغذية الذي ظهر في سواحل الجنوب التهامي إنما هم من فئة الصيادين الذين كانت حياتهم مستقرة لدرجة البذخ عند بعضهم .
ففي تهامة معروف أن الصيادين طبقة مستوى دخلها فوق المتوسط لدرجة أنهم يمتازون بمستوى معيشتهم بل ويكفلون العديد من الأسر المعدومة، وتبدّلت أحوالهم تماماً بسبب توقفهم عن ممارسة الصيد نتيجة انعدام الأمن في المياه الإقليمية خصوصاً الغارات الخاطئة أو القصف المتعمّد للقوارب المشتبه باستخدامها من قبل المليشيا وهي عوامل أدّت لتوقف حركة الصيد بنسبة تجاوزت الـ60% وزاد من نسبة الخطر على من بقي في ممارسة الصيد نشر المليشيا للألغام البحرية إضافة للعمليات الحربية التي أثرت على الأمن الإقليمي والدولي في البحر الأحمر.

واقع الأمر أن أسباباً متقاطعة أدت إلى ما آل إليه حال المتضررين من الظروف الأمنية وحالة الحرب التي تشهدها البلاد نتيجة الانقلاب على الشرعية في سبتمبر 2014م .

ولعــل من المناسب تلخيصها في النقاط التالية :-

1. إهمال الدولة لقطاع الصيد والزراعة حداً جعلهم يواجهون لوحدهم تحديات توفير المحروقات اللازمة للصيد والزراعة حتى عجز بعضهم عن توفير ما يلزمه فاضطر للتوقف والبحث عن بدائل.

2. سيطرة المليشيا وأتباع المخلوع على مركز المحافظة إبان اجتياحهم للحديدة في أكتوبر 2014 بعد أقل من شهر من اجتياح صنعاء، وفرض أتباعهم بقوة السلاح تحت عنوان اللجان الشعبية في المؤسسات الإيرادية خصوصاً في موانئ الاصطياد السمكي ومنافذ الجمارك والاستيراد والتصدير.

3. استحواذ مشرفي المليشيا على مخصصات الصيادين والمزارعين من المحروقات كالديزل والبترول واستنزاف جزء كبير منه في السوق السوداء لتحقيق الثراء غير المشروع.

4. تعرض الصيادين والمزارعين لسياسة الابتزاز الممنهج من قبل مشرفي المليشيا للحصول على مخصصاتهم من المحروقات مقابل نسب تصادر لمصلحة المشرفين.

5. في الطرف الآخر يتحمل التحالف العربي مسؤولية بنسبة متفاوتة تجاه الصيادين نتيجة التقصير في توفير الإغاثة اللازمة لعشرات الآلاف الذين تضرروا جراء الحرب ولو عبر وسطاء دوليين في ظل مخاوف سيطرة أو مصادرة المليشيا للإغاثات أو تصريفها لغير المستهدفين بها في الحديدة.

بدائل:

- اضطر قليل من المزارعين لبيع ممتلكهاتم أو الاستدانة لتوفير الطاقة البديلة لتشغيل بمبات لمزارعهم لتوفير الحد الأدنى من المنتجات الزراعية الممكنة.

- يخضع المزارعين والصيادين تحت ضغط الحاجة لابتزاز المليشيا مقابل الحصول على ما أمكن من مخصصات المحروقات .

- بات البعض يعتمدون على ما يمكن توفيره من مساعدات إغاثية طارئة لسد حاجتهم المعيشية .

المخاوف:

ثمة مخاوف من قرار تحرير الحديدة ليس لبعده الوطني والقومي المطلوب بل من التداعيات المحتملة التي قد تطال مئات الآلاف من الضحايا .

ففي محافظة تغلب البساطة على منازل سكانها ، إذ تتهدم البيوت نتيجة زخات أمطار ، كيف سيكون حالهم في حال تمترست المليشيا بهم وتعرضت بيوتهم لاهتزازات القصف العسكري بأنواعه .

في البعد الإنساني أيضاً الوضع مرشح لانهيارٍ إنساني مؤسف ومهول نتيجة توقف مصادر العيش في حال اندلعت حرب تحرير الحديدة .

التوصيات

- التنسيق الدولي لتوفير ولو الحد الأدنى من العمل الإغاثي المتزامن مع أي تحرك عسكري.

- توفير وسيط دولي يمكن من خلاله توصيل المساعدات الصحية والغذائية للمتضررين من العمل العسكري.

- توفير مساحات آمنة للأطفال وكبار السن وهم الشريحة الأكثر تضرراً من ظروف الحرب.

- تجنيب المدن والأحياء أي استهداف عسكري مباشر خصوصاً الغارات الجوية سيما واحتمال تمترس المليشيا بالمدنيين احتمالٌ قائم وشبه مؤكد فليس من السهل أن يتنازل الانقلابيون عن محافظة تدر عليهم ما لا تدره عليهم محافظة أخرى من الموارد المالية التي تطيل من عمر حربهم ضد الشرعية.

المؤسسة العربية للدراسات الإستراتيجية
ARAP STRATEJİK ARAŞTIRMA MERKEZI